

نشأة علم البديع وتطوره: منذ البداية إلى القرن السابع الهجري

حنانة مختار الطبراني

(محاضرة في جامعة سلطان مولانا حسن الدين الإسلامية الحكومية بنتن)

الملخص

يهدف هذا البحث إلى بيان فن البديع في البلاغة العربية، من تعريفه اللغوي، والاصطلاحي، ونشأته، وتطوره، وأنواعه المتعددة، وأهم رجالته عبر القرون المتعاقبة. والمنهج المتبع في معالجة هذا الموضوع هو المنهج الوصفي، حيث تقوم الدراسة بوصف ما هو كائن في كتب البلاغة وأدبيات اللغة العربية المتعلقة بموضوع الدراسة.

إن كلمة (بديع) جاءت بمعان عدة، منها: بمعنى الإنشاء، والجدة، والابتداء، والمسرة، والإعجاب، والطيب. فالإبداع هو إنشاء الشيء الجديد ابتداء، لأنه لم يسبق له مثيل، ويستدعي إعجاب الناظر إليه، ويؤدي إلى الإحساس بالمسرة لذلك الشيء الجديد الطيب. والكلام البديع هو الكلام الجديد الذي لم يسبق له مثيل، ويستدعي إعجاب السامع له، ويحرك نفسه، ومشاعره، وأحاسيسه، ويتجاوب مع مضمونه. وأما علم البديع فهو: علم يعرف به وجوه تحسينات الكلام، بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال، ووضوح الدلالة.

يتطور علم البديع مثل غيره من العلوم. وكانت بداية إرهاباته في القرن الثالث الهجري على يد مسلم ابن الوليد، حيث أشار إلى بعض مصطلحاته، في كتاباته الأدبية، كالجناس، والطباق، وغيرهما. ثم جاء بعده ابن المعتز، حيث إنه يعتبر أول من وضع أسس هذا العلم ومصطلحاته، حتى إنه ألف كتابا سماه (البديع) سنة ٢٧٤هـ.

Keyword: Nashat, Taṭawwur, 'Ilmu al-Badī', al-Bidāyah,

مقدمة

جاء في لسان العرب، "بدع الشيء - يبدعه - بدعًا - وابتدعه، أنشأه وبدأه واخترعه، والبديع: المُحدِث العجيب، والبديع: المُبدِع، وأبدعت الشيء: اخترعته لا على مثال. والبديع: من أسماء الله تعالى، لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها."^١ فمعنى كلمة (بدع) لغويًا: الإنشاء ابتداءً عن غير مثال سابق.

"ولا يخرج معنى كلمة (البديع) في المعاجم الأخرى عن معنى الجِدَّة التي يدل عليها إنشاء الشيء ابتداءً وعلى غير مثال سابق، والبراعة التي يدل عليها العجب".^٢ وقد وردت كلمة (بديع) في القرآن الكريم مرتين: هما في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^٣، وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^٤. "ومعناها في هاتين الآيتين: منشؤهما ومبدؤهما على غير مثال سابق".^٥

^١ ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ١٣٠٧هـ، مادة (ب د ع). وينظر: ابن الأثير، ضياء الدين، النهاية في غريب الحديث والأثر، دن، القاهرة، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، ج ١، ص ١٠٦-١٠٧. وينظر: الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، ١٩٥٢م، مادة (ب د ع).

^٢ مطلوب، أحمد، فنون بلاغية، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، ص ١٩٦، وينظر: المصري، ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، نهضة مصر، القاهرة، د.ت، ص ٨، وينظر: ابن منظور، لسان العرب، ١٣٠٧هـ، مادة (ب د ع)، وينظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ١٩٥٢م، مادة (ب د ع) و(ب د أ)، وينظر أيضا: الزبيدي، تاج العروس، المطبعة الخيرية، مصر، ١٣٠٦هـ، مادة (ب د ع).

^٣ القرآن الكريم، سورة البقرة، ٢: ١١٧.

^٤ القرآن الكريم، سورة الأنعام، ٦: ١٠١.

^٥ المصري، د.ت، بديع القرآن، ص ٩.

فإنه سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض ابتداء لا يسبقه فيه غيره. ويرى ابن أبي الإصبع المصري "أن كلمة (بديع) تتضمن معنى العجيب أي السار، والطريف الذي يلفت النظر، لأن خلق السماوات والأرض ابتداء يستدعي الإعجاب".^٦

وفي الحديث الشريف ورد هذا اللفظ بمعنى الجديد الطيب، يقول الرسول P في وصف تهمامة: "إن تهمامة كبديع العسل حلو أوله، حلو آخره".^٧ وقد وردت المادة أيضا بمعنى الجدة، فقد روي عن الرسول P: "كيف أصنع بما أبدع علي منها"، وفي حديث عمر: (نعمت البدعة هذه).^٨

وقد ورد لفظ (البديع) أو مشتقاته في الشعر الجاهلي وشعر المخضرمين بمعنى الجديد والمخترع، فقال عدي بن زيد:^٩

فلا أنا بدع من حوادث تعتري! رجالات غدت من بعد بؤس بأسعد^{١٠}
وقال حسان بن ثابت^{١١}:

قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوّهم! أو حاولوا النّفع في أشياعهم نفعوا
سجّية تلك فيهم غير مُحدّثة! إنّ الخلائق فاعلم شرّها البِدع^{١٢}

فالبدعة هنا بمعنى الجدة والحدائث، أي محدثات الأخلاق التي لا تتفق مع التقاليد الصالحة.

^٦ المصري، دت، بديع القرآن، ص ٩.

^٧ ابن الأثير، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ١، ص ١٠٦.

^٨ ابن الأثير، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ١، ص ١٠٦-١٠٧، وينظر:

ابن منظور، ١٣٠٧هـ، مادة (ب د ع)، وأيضا: الفيومي، المصباح المنير، مادة (ب د ع).

^٩ المصري، دت، بديع القرآن، ص ٨.

^{١٠} البيت من الطويل، عروضه مقبوضة وضربه كذلك.

^{١١} ابن ثابت، حسان، ديوان حسان ابن ثابت، دن، دم، دت، ص ١٥٢.

^{١٢} الأشياع: الأتباع والمناصرون، السجّية: الطبيعة، البدع: المراد من كلمة (البدع) هنا

مستحدثات الأخلاق. والبيت من البسيط، عروضه مخبونة، وضربه كذلك.

فإذا انتقلنا إلى الأدب العربي في صدر الإسلام شعرا ونثرا، وجدنا هذه المادة مستعملة عندهم في هذه المعاني السابقة. أما النثر: فكقول علي ت: "إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان: رجل وكله الله إلى نفسه، فهو جائر عن قصد السبيل، مشغوف بكلام بدعة ودعاء ضلالة"^{١٣}.^{١٤} فالبدعة هنا بمعنى الجدة والحداثة، أي محدثات الكلام التي لا تستند إلى دليل قاطع. وأما الشعر فكقول الفرزدق:^{١٥}

أبت ناقتي إلا زيادا ورغبتي! وما الجود من أخلاقه ببديع^{١٦}
ومما سبق نستنتج أن كلمة (بديع) جاءت بمعان عدة، منها بمعنى الإنشاء، والجدة، والابتداء، والمسرة، والإعجاب، والطيب. ويمكن توحيد هذه المعاني كلها بأن الإبداع هو: إنشاء الشيء الجديد ابتداء، لأنه لم يسبق له مثل، ويستدعي إعجاب الناظر إليه، ويؤدي إلى الإحساس بالمسرة لذلك الشيء الطيب. والكلام البديع هو الكلام الجديد، الذي لم يسبق له مثل، ويستدعي إعجاب السامع له، ويحرك نفسه ومشاعره وأحاسيسه، ويتجاوب مع مضمونه.

تعريف البديع

^{١٣} وكله الله إلى نفسه أي تركه ونفسه، وهو كناية عن ذهابه خلف هواه لا يرجع إلى حقيقة من الدين، ولا يهتدي بدليل من الكتاب، وكلام البدعة: ما اخترعته الأهواء ولم يعتمد على ركن من الحق ركين.

^{١٤} الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، نهج البلاغة، دن، دم، دت، ج ١، ص ٥١.

^{١٥} من قصيدة يمدح بها زياد بن الربيع بن زياد بن كعب، وكان في هجر، ديوان زياد ابن الربيع، ص ٣٤٣. انظر: المصري، دت، بديع القرآن، ص ١١.

^{١٦} البيت من الطويل، عروضه مقبوضة وضربه محذوف.

فقد وردت تعريفات عدة للبديع، يكاد يتفق كلها في مضمونها، منها تعريف الخطيب القزويني لمصطلح البديع بقوله: "البديع علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة".^{١٧} ويعتبر هذا التعريف من أوجز التعريفات وأوضحها، لتضمنه ماهية البديع كاملة وشاملة.

وأما ابن خلدون فيقول في مقدمته: "البديع هو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق، إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما، وأمثال ذلك".^{١٨} فابن خلدون لا يقتصر على تعريف ماهية البديع فحسب، وإنما يتجاوز إلى أنواع البديع من تجنيس وسجع وغيرهما.

ومن القدماء من يعرف البديع بماهيته، ويوضح شروطه، ويبين قيمته ومكانته بين علوم البلاغة العربية الأخرى. فيقول حاجي خليفة: "البديع هو علم يعرف به وجوه تفيد الحسن في الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى المقام، ووضوح الدلالة على المراد، فإن هذه الوجوه إنما تعد محسنة بعد تينك الراعيتين، وإلا لكان كتعليق الدرر على أعناق الخنازير، فمرتبة هذا العلم بعد مرتبة علمي المعاني والبيان، حتى إن بعضهم لم يجعله علما على حدة، وجعله ذيلا لهما، لكن تأخر رتبته لا يمنع كونه علما مستقلا، ولو اعتبر ذلك لما كان كثير من العلوم علما على حدة فتأمل".^{١٩} فقد

^{١٧} القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد ابن قاضي القضاة سعد الدين أبي محمد عبد الرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص ٤٧٧. وينظر: مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، مادة (ب د ي).

^{١٨} ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ط ٣، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت، ج ١، ص ٦١.

^{١٩} خليفة، حاجي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت،

١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ج ١، ص ٢٣٢. وينظر: المراغي، محمود أحمد حسن، علم البديع، دار العلوم

العربية، بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ١٠.

أكد هذا التعريف على أهمية مراعاة الكلام لمقتضى الحال ووضوح الدلالة، كشرط أساسي للكلام البديع، فلا عبرة لحسن البديع دون هاتين الرعايتين. وعرفه مأمون محمود ياسين من المتأخرين تعريفا موجزا هو أن البديع "علم يعرف به الوجوه والمزايا التي تكسب الكلام حسنا وقبولاً مع رعاية المطابقة لمقتضى الحال".^{٢٠}

من هذه التعريفات نستنبط: أن البديع علم لمعرفة وجوه تحسينات الكلام، بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال، ووضوح الدلالة فيه، وأن من أمثلته التجنيس، والسجع، والتورية، وغيرها، وأن مرتبته بعد علمي البيان والمعاني، وأنه علم مستقل بنفسه.

نشأة علم البديع وتطوره

تكلم العلماء عن تطور علم البديع، وأهم رواده في كتب البلاغة بإسهاب ووضوح، ونحن في هذا البحث لا نضيف شيئا مما كتب، وإنما ننقلها بشيء من الإيجاز، رعاية للموقف، فنقول:

بداية ظهور البديع في القرن الثالث الهجري

إن بداية ظهور البديع كانت في القرن الثالث الهجري، حيث وجدت إشارات عن البديع في كتابات مسلم بن الوليد. يقول المراغي: "إن إرهاصات ولادة فن جديد من فنون بلاغية ترجع إلى إشارات من مسلم بن الوليد المتوفي سنة ٢٠٨ هـ، حيث وضع مسلم مصطلحات لبعض الأنواع البيانية والمحسنات اللفظية والمعنوية كالجناس والطباق"^{٢١} وذكر أبو الفرج الأصفهاني أن الشاعر العباسي مسلم بن الوليد (٢٠٨هـ) كان أول من أطلق هذا المصطلح، حيث يقول: "وهو أول من قال الشعر

^{٢٠} ياسين، مأمون محمود، من روائع البديع، ص ٤١.

^{٢١} المراغي، ١٤١١هـ/١٩٩١م، علم البديع، ص ١١.

المعروف بالبديع، وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف، وتبعه فيه جماعة، وأشهرهم فيه أبو تمام^{٢٢}.

ثم جاء من بعده الجاحظ (المتوفى ٢٥٥هـ)، حيث يشير إلى مصطلح البديع بمعناه الفني، كما يشير إلى بعض رواده، حيث قال: "إن الرواة أول من أطلق على المستطرف الجديد من الفنون الشعرية، وعلى بعض الصور البيانية التي يأتي بها الشعراء في أشعارهم، فتزيدها حسنا وجمالا. قال معلقا على بيت الأشهب بن رميلة^{٢٣}:

هم ساعد الدهر الذي يتقي به ! وما خير كف لا تنوء بساعد^{٢٤}

ثم فسره بقوله: قوله (هم ساعد الدهر) إنما هو مثل، وهذا الذي تسميه الرواة البديع^{٢٥}.

وقد فسرا بن أبي الإصبع المصري هذا النص^{٢٦}:

أولا: أن الجاحظ لم يكن أول من أطلق هذا اللفظ (البديع) على هذه الفنون البيانية، وإنما نقل ذلك عن الرواة واستعملها فيما ألف.

ثانيا: أن هذا اللفظ أطلق إطلاقا على الجديد الطريف من هذه الصور والتعابير البلاغية، فقد أطلق هنا على الاستعارة في قول الشاعر (ساعد الدهر). فمن هنا نستنبط أن الجاحظ قد أشار إلى هذا المصطلح (البديع) وبعض أنواعه، دون أن يحدد معاملة الخاصة كما هو معروف فيما بعد.

^{٢٢} المصري، د.ت، بديع القرآن، ص ١٢.

^{٢٣} هو شاعر إسلامي مخضرم، تعرف له صحبة بالنبي P، ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين،

دن، القاهرة، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م، ج ٤، ص ٣٤.

^{٢٤} البيت من الطويل، عروضه مقبوضة وضربه كذلك.

^{٢٥} الجاحظ، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م، البيان والتبيين، ج ٤، ص ٣٤.

^{٢٦} المصري، بديع القرآن، د.ت، ص ١٣.

وجاء بعد الجاحظ ابن المعتز (المتوفى سنة ٢٩٦هـ)، ويعتبر ابن المعتز أول من وضع أسس هذا العلم ومصطلحاته، حيث قال في صدر كتابه (البيديع): "قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن، واللغة، وأحاديث رسول الله P، وكلام الصحابة، والأعراب وغيرهم، وأشعار المتقدمين، من الكلام الذي سماه المحدثون (البيديع)، ليُعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن قبلهم ومن سلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثرت في أشعارهم، فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم، فأعرف عنه ودل عليه".^{٢٧}

وكان كتابه (البيديع) أول كتاب في علم البيديع الذي ألفه في سنة ٢٧٤هـ، حيث يقول ابن المعتز: "ما جمع قبلي فنون البيديع أحد، ولا سبقني إلى تأليفه مؤلف، ومن أراد أن يقتصر على ما اخترعناه فليفعّل، ومن رأى إضافة شيء من المحاسن إليه فله اختياره، ثم قال: وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين".^{٢٨}

والبيديع عند ابن المعتز قسمان: "القسم الأول خمسة أنواع، هي الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي، وهذه الأنواع ما سماه ابن المعتز البيديع. والقسم الثاني أطلق عليه ابن المعتز محاسن الكلام، وهي ثلاثة عشر نوعا، الالتفات، والاعتراض، والرجوع، وحسن الخروج، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، وتجاهل العارف، والهزل الذي يراد به الجحد، وحسن التضمين، والتعريض والكناية، والإفراط في الصفة، وحسن التشبيه، وإعنات المرء نفسه (لزوم ما لا يلزم)، وحسن الابتداء، ولا مانع عنده أن تدخل هذه الأنواع تحت اسم (البيديع)".^{٢٩}

^{٢٧} الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٩هـ/١٩٧٥م، ج ١٩، ص ٣١.

^{٢٨} المراغي، ١٤١١هـ/١٩٩١م، علم البيديع، ص ١٢.

^{٢٩} المراغي، ١٤١١هـ/١٩٩١م، علم البيديع، ص ١٣.

ومن ذلك يرى ابن أبي الإصبع المصري ما يأتي:^{٣٠}

أولاً: أن ابن المعتز أول من ألف في هذا الفن.

ثانياً: أن ما ذكره يدخل الآن في علوم البلاغة وبخاصة البيان والبديع.

ثالثاً: أن هذا الاصطلاح (البديع) قد سبق إليه آخرون.

رابعاً: أن فنون البديع نفسها من الناحية الفنية قد صاحبت الشعر من أقدم عهوده وإن كثرت على عهد ابن المعتز، وأن بعض الشعراء إلى عهده قد غلا في استعمالها، وأن بشاراً ومن تبعه كانوا يعتزون بأنهم أصحاب هذا المذهب الصناعي، فرد عليهم ابن المعتز بأن هذا (البديع) قديم لا فضل لهم في ابتكاره وإن كانت لهم صفة إكثاره وتصنعه.

وجاء بعده من أعلام القرن الثالث الهجري ابن قتيبة، "فذكر من فنون البديع الالتفات، والكناية والتعريض، والاستعارة، ومن غيرها: التكرار، والإيجاز، والإفراط في الصفة".^{٣١}

ثم جاء من بعده المبرّد، "فذكر من البديع الاستعارة، والكناية، والتشبيه، والالتفات، وذكر من المحاسن: الغلو، والتجريد، واللف والنشر. وهكذا نجد هؤلاء الثلاثة الجاحظ وابن قتيبة والمبرد يشتركون في التمهيد لما جمع ابن المعتز في كتابه، ويذكرون فنونا بديعية أخرى لم يذكرها في كتابه (البديع). وأيضاً نلاحظ عند هؤلاء أن هذه الأنواع التي أوردوها تتوزع بين علوم البلاغة في وضعها الأخير في العربية، وهي: المعاني، والبيان، والبديع. ومعنى ذلك أن هذا المصطلح كان ذا دلالة واسعة في القرن الثالث الهجري".^{٣٢}

^{٣٠} المصري، دت، بديع القرآن، ص ٢١.

^{٣١} المصري، دت، بديع القرآن، ص ٢١.

^{٣٢} المصري، دت، بديع القرآن، ص ٢١.

القرن الرابع الهجري

وإذا نظرنا إلى القرن الرابع الهجري، وجدنا فارس هذا الفن هو قدامة بن جعفر، المتوفى سنة ٣٣٧هـ، وقد ألف كتابه (نقد الشعر)، طور فيه ما قد وضعه ابن المعتز في هذا الفن. "وقد ذكر في كتابه أربعة عشر لونا من البديع، واتفق مع ابن المعتز في خمسة أنواع، منها المبالغة، والالتفات، وثلاثة آخر يختلفان فيها إلا في المسمى الاصطلاحي، وهي (الاعتراض) عند ابن المعتز، وسماه قدامة (التميم)، و(الطباقي)، وسماه قدامة (التكافؤ)، و(رد أعجاز الكلام على ما تقدمها)، وسماه قدامة (التوشيح). أما التسعة الأنواع الأخرى من اختراعه، فهي: الترصيع، والغلو، وصحة التقسيم، وصحة المقابلات، وصحة التفسير، والإشارة، والإرداف، والتمثيل، والإيغال".^{٣٣}

ويأتي بعده أبو هلال العسكري، "وهو نسبة إلى مدينة (عسكرمكرم) من كور الأهواز بين بصرة وفارس"،^{٣٤} فقد أضاف إلى ما سبق سبعة أنواع هي:^{٣٥} التشطير^{٣٦}، والمجاورة^{٣٧}، والتطير^{٣٨}، والمضاعفة^{٣٩}، والاشتهاد^{٤٠}، والتلطف^{٤١}، والمشتق ذكرها

^{٣٣} المراغي، ١٤١١هـ/١٩٩١م، علم البديع، ص ١٥.

^{٣٤} المراغي، علم البديع، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص ١٥.

^{٣٥} ظن المؤلف (العسكري) أن هذه الأنواع السبعة من اختراعه، وأنه لم يسبق إليها،

والحقيقة أنه سبق إليه البعض وسلم له البعض.

^{٣٦} العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين، دن، القاهرة، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، ص ٤١١. وسبقه إليه ثعلب باسم (المعدل)، قواعد الشعر، دار المعارف، د.م، ١٩٦٦م، ص ٢٩، والجاحظ تحت اسم مزدوج الكلام، البيان والتبيين،

١٣٦٧هـ/١٩٤٨م، ج ٢، ص ١١٦.

^{٣٧} المجاورة، العسكري، الصناعتين، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، ص ٤١٣. سلم له هذا النوع اسما ومسعى.

^{٣٨} العسكري، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، ص ٤٢٥، سلم له هذا النوع وعرف فيما بعد بالتوشيح.

^{٣٩} العسكري، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، ص ٤٢٣، سلم له هذا النوع ولم يسبق إليه.

^{٤٠} العسكري، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، ص ٤١٦، تكلم في آخره بما يدل على أنه داخل ضمن التشبيه وضمن حسن

التعليل.

^{٤١} العسكري، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، ص ٤٢٧، سلم هذا النوع.

في كتابه الصناعتين".^{٤٢} وقد أخذ مفهوم كلمة البديع في هذه الفترة في الاتساع، وازدادت فنونه وأنواعه، "فقد وصل عدد أنواع البديع التي أوردتها أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين ستة وثلاثين نوعاً".^{٤٣}

القرن الخامس الهجري

ومن علماء وأدباء القرن الخامس الهجري ابن رشيق القيرواني (المتوفى سنة ٤٦٣هـ) وهو "أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، صاحب كتاب (العمدة) في صناعة الشعر ونقده".^{٤٤} ومما يذكر أنه تفرد ببعض أنواع البديع التي لم يسبق إليه أحد، وهي: التورية، والترديد، والتفريع، والاستدعاء، والتكرار، ونفي الشيء بإيجابه، والاطراد، والاشتراك، والتغير.^{٤٥}

أما ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦هـ، "فهو الأمير أبو محمد عبد الله محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، عاصر ابن رشيق، ولكن الشواهد تدل على عدم التقائهما، إذ لم يتحدث أحد منهما عن الآخر في كتابه، وابن رشيق مغربي قيرواني، وابن سنان مشرقي حلبي".^{٤٦}

ويقول ابن أبي الإصبع المصري "يعد ابن سنان امتداداً لقدامية بن جعفر، وضع كتابه (سر الفصاحة)، وتناول فيه فصاحة اللفظة الواحدة والذي لا شك فيه أن ما فعله ابن سنان من التفرقة بين اللفظي والمعنوي، كان من أهم الدعائم التي بنى عليها المتأخرون تقسيمهم الألوان البديعية إلى لفظية ومعنوية".^{٤٧}

^{٤٢} المصري، د.ت، بديع القرآن، ص ٢٣.

^{٤٣} المراغي، علم البديع، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص ١٥.

^{٤٤} المصري، د.ت، بديع القرآن، ص ٢٣-٢٤.

^{٤٥} المراغي، علم البديع، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص ١٨.

^{٤٦} المراغي، علم البديع، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص ١٨-١٩.

^{٤٧} المصري، د.ت، بديع القرآن، ص ٢٤-٢٥.

وجاء من بعده عبد القاهر الجرجاني (المتوفى سنة ٤٧١هـ)، ولعبد القاهر الجرجاني نظرية خاصة، وهي نظرية النظم، تقوم على "أن لا مزية ذاتية للألفاظ في الكلام من حيث هي ألفاظ، وإنما المزية تأتي دائما من قبل التراكيب وصورة نظمها وتأليفها"^{٤٨}. وبناء على هذه النظرية فجمال البديع عنده ليس في اللفظ ذاته وإنما جاء من التراكيب والنظم التي يتألف منها الكلام.

وفي كتابه (أسرار البلاغة) " فقد أطلق اسم (البديع) على التشبيه، والاستعارة، والتمثيل، وعلى سائر أقسام البديع، فيذكر منها التجنيس، والحشو المفيد وغيره، والطباق، والمجاز اللغوي والعقلي، وحسن التعليل، ويريد بها الجديد، والحسن، والطريف، ويحاول دائما أن يقول إن الحسن فيها يأتي من جهة المعنى. وهكذا لا تزال كلمة البديع تطلق إطلاقا عاما على هذه الأنواع المشتركة بين علوم البلاغة في صورتها الأخيرة. ثم يخلص إلى أن روعة الكلام وإبداعه ليس في اللفظ وحده، ولا في المعنى وحده، وإنما موطنهما النظم"^{٤٩}. فعند الجرجاني لم يتم هناك تقسيم واضح بين أقسام البلاغة من معان وبيان وبديع.

القرن السادس الهجري

يعتبر القرن السادس الهجري فترة ازدهار البديع واكتمال نموه، وجاء فارس هذه الفترة الزمخشري (المتوفى سنة ٥٣٨هـ). فقد أضاف الزمخشري في البديع ما لم يأت به سابقوه. وموقف الزمخشري في الكشف مثل موقف الجرجاني من البديع. "إذ أنه لم يتوقف عند شيء من البديع إلا ما كان يراه ذا أثر في بلاغة القرآن الكريم، فنجدته يطرق على استحياء بعض أنواع البديع، كالطباق، والمشكلة، واللف والنشر، والالتفات، وتأكيد المدح بما يشبهه الذم، والتقسيم، والاستطراد، ومراعاة النظر،

^{٤٨} المراغي، علم البديع، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص ٢٠.

^{٤٩} المصري، دت، بديع القرآن، ص ٢٦-٢٧.

والتناسب، والتجريد".^{٥٠} فيعتبر المخشري رائداً من رواد البديع في القرن السادس الهجري، مع ما جاء به من أنواع جديدة في البديع.

ولكن القرن السادس لا يكاد ينقضي حتى يبرز فيه رجال من رجال علم البديع، هما: "الوطواط، وهو رشيد الدين العمري (المتوفى سنة ٥٧٣هـ)، وله كتاب (حدائق السحر في حقائق الشعر)، والكتاب في البلاغة الفارسية، ترجمه إلى العربية الدكتور إبراهيم الشواربي، جعله صاحبه تطبيقاً جيداً لفنون البديع العربي على نصوص الأدب الفارسي".^{٥١} فعنده لا يقتصر البديع في الأدب العربي وإنما يتجاوز تطبيقه إلى البديع الفارسي.

والثاني: "أسامة بن منقذ (المتوفى سنة ٥٨٤هـ)، وهو الرجل الثاني بعد الوطواط من علماء البديع في القرن السادس الهجري، وأهله بنو منقذ كانوا أمراء (شيراز) بالقرب من حماه، وينتهي نسبهم إلى حمير. وكان ابن منقذ شاعراً أديباً له مصنفات عدة في فنون الأدب، أهمها كتاب (البديع في نقد الشعر)، اجتمع له فيه خمسة وتسعون باباً في البديع، جمع فيها كثيراً مما جاء في كتب سابقه في نقد الشعر، وبيان ما استحسن منه وما استهجن، وقد بدأت أبوابه بالتجنيس وانتهت بالتهذيب".^{٥٢} وبهذا قد ازدهر البديع ازدهاراً واسعاً، ولم يأت من بعدهم بشيء جديد، إلا بشيء يسير يقتصر على التقسيم والتلخيص على ما أتى به سابقوهم.

القرن السابع الهجري

ومن أشهر علماء البلاغة في القرن السابع الهجري فخر الدين الرازي (المتوفى سنة ٦٠٦هـ)، حيث قال عنه المرآغي: "لم يغفل الرازي البديع في كتابه (نهاية الإيجاز

^{٥٠} المرآغي، ١٤١١هـ/١٩٩١م، علم البديع، ص ٢٢-٢٣.

^{٥١} المرآغي، ١٤١١هـ/١٩٩١م، علم البديع، ص ٢٢-٢٣.

^{٥٢} المرآغي، ١٤١١هـ/١٩٩١م، علم البديع، ص ٢٢.

في دراية الإعجاز)، فتناول منه أنواعا عدة، نقلها عن كتاب الوطواط (حدائق السحر في حقائق الشعر). من هذه الأنواع تجنيس الخط، والمُصَحَّف، والتجنيس، والاشتقاق، ورد العجز على الصدر، والمقلوب، وغير ذلك من ألوان البديع التي لخصها ونشرها في ثانيا كتابه، بطريقة نتج عنها نوع من الخلط بين علم البديع وعلمي المعاني والبيان".^{٥٣}

ومن البلاغيين الذين لهم فضل في قسم البديع السكاكي (المتوفى حوالي سنة ٦٢٦هـ)، ويقول عنه المراغي: "ولعل تقسيم المحسنات البديعية إلى معنوية ولفظية تقسيما صحيحا كان على يدي السكاكي، كما يحسب للسكاكي أنه أول من فرق بين مباحث علمي المعاني والبيان، وأطلق على كل منهما مصطلحه (علم المعاني) و(علم البيان). ولم يأت السكاكي بجديد في أنواع البديع، بل هو يستقصي كل ما اهتدى إليه سابقوه في علم البديع، ويقتصر على ستة وعشرين منها، استمدها بأمثلتها من فخر الدين الرازي".^{٥٤}

هكذا وقد أتى من بعدهم قوم لا يألون جهدا في سبيل استكمال المصير وتسوية السبيل، حتى انبروا في تأليف الكتب المطولات، أو في اختصار ما قد ألفه سابقوه، أو تقرير ما كتب قبله، إلى أن يشاء الله ما شاء من ازدهار المكتبات العلمية، وبخاصة في فن البلاغة والبديع.

الاختتام

إن كلمة (بديع) جاءت بمعان عدة، منها: بمعنى الإنشاء، والجدة، والابتداء، والمسرة، والإعجاب، والطيب. فالإبداع هو إنشاء الشيء الجديد ابتداء، لأنه لم يسبق له مثيل، ويستدعي إعجاب الناظر إليه، ويؤدي إلى الإحساس بالمسرة لذلك الشيء

^{٥٣} المراغي، ١٤١١هـ/١٩٩١م، علم البديع، ص ٢٣.

^{٥٤} المراغي، ١٤١١هـ/١٩٩١م، علم البديع، ص ٢٤-٢٥ بتصرف.

الجديد الطيب. والكلام البديع هو الكلام الجديد الذي لم يسبق له مثيل، ويستدعي إعجاب السامع له، ويحرك نفسه، ومشاعره، وأحاسيسه، ويتجاوب مع مضمونه. وأما علم البديع فهو: علم يعرف به وجوه تحسينات الكلام، بعد رعاية مطابقتها لمقتضى الحال، ووضوح الدلالة.

يتطور علم البديع مثل غيره من العلوم. وكانت بداية إرهاباته في القرن الثالث الهجري على يد مسلم ابن الوليد، حيث أشار إلى بعض مصطلحاته، في كتاباته الأدبية، كالجناس، والطباق، وغيرهما. ثم جاء بعده ابن المعتز، حيث إنه يعتبر أول من وضع أسس هذا العلم ومصطلحاته، حتى إنه ألف كتابا سماه (البديع) سنة ٢٧٤هـ.

وفي القرن الرابع الهجري، قام قدامة بن جعفر بتطوير هذا الفن، وذكر أربعة عشر لونا من البديع، اتفق في خمسة ألوان منه مع ابن المعتز، واخترع تسعة ألوان من نفسه. وأما في القرن الخامس الهجري، فيأتي ابن رشيق القيرواني، وابن سنان الخفاجي، وعبد القاهر الجرجاني، بزيادات عدة في مصطلحات الفن، وفي ضبط روعة الكلام، حتى قام الجرجاني باختراع نظريته الشهيرة، وهي: نظرية النظم التي تقوم على أنه "لا مزية ذاتية للألفاظ في الكلام من حيث هي ألفاظ، وإنما المزية تأتي دائما من قبل التراكيب وصورة نظمها وتأليفها".^{٥٥}

وأما في القرن السادس الهجري، فمن رواده الزمخشري الذي يقف موقف سابقه كالجرجاني، الذي لا يهتم بالبديع إلا ما كان له أثر في بلاغة القرآن الكريم. كما جاء من بعده الوطواط الذي طبّق فن البديع العربي في الأدب الفارسي، وأسامة بن منقذ، الذي ألف كتابا سماه "البديع في نقد الشعر". وجمع فيه ما يربو على خمسة وتسعين فنا من فنون البديع.

^{٥٥} المرآغي، ١٤١١هـ/١٩٩١م، علماء البديع، ص ٢٠.

وما أن جاء القرن السابع الهجري، حتى أصبح البديع مكتمل المعالم، ومشمتمل العناصر، وذلك على أيدي رواده، أمثال فخر الدين الرازي، والسكاكي الذي له فضل في تقسيم المحسنات البديعية إلى معنوية ولفظية، وتقسيم مباحث علمي المعاني والبيان.

المراجع

القرآن الكريم.

ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري. ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م. *النهاية في غريب الحديث والأثر*. تحقيق طاهر أحمد الزاي ومحمود محمد الطناحي، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

ابن ثابت، حسان. ١٩٧٤م. *ديوان حسان بن ثابت*. تحقيق: د. وليد عرفات. ط ٢. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن خلدون. د.ت. *مقدمة ابن خلدون*. ط ٣. القاهرة: دار نهضة مصر.

ابن منظور، ١٣٠٧م. *لسان العرب*. القاهرة: دار المعارف.

الأصفهاني، أبو الفرج. ١٣٨٩هـ/١٩٧٥. *الأغاني*. القاهرة: دار الكتب المصرية.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م. *البيان والتبيين*. ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية.

خليفة، حاجي، *كشف الظنون*. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

الرسائل العلمية.

الزبيدي، تاج العروس، المطبعة الخيرية، مصر، ٦٣٠٦هـ. مادة (ب د ع)

الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر. ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م. أساس البلاغة.
بيروت: دار الفكر.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل. ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م. كتاب
الصناعتين. تحقيق: مفيد قميحة. ط ٢. بيروت: دار الكتب العلمية.

الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت،
١٩٥٢م، مادة (ب د ع)

الفيومي، المصباح المنير، مادة (ب د ع)

القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد ابن قاضي القضاة سعد الدين أبي محمد
عبد الرحمن. د.ت. الإيضاح في علوم البلاغة. بيروت: دار الكتب العلمية.
المراغي، محمود أحمد حسن. ١٤١١هـ/ ١٩٩١م. علم البديع. ط ١. بيروت: دار العلوم
العربية.

المصري، ابن أبي الإصبع. د.ت. بديع القرآن. تحقيق: حفي محمد شرف. القاهرة:
نهضة مصر.

مطلوب، أحمد. ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م. فنون بلاغية. طبعة أولى. الكويت: دار البحوث
العلمية.

مطلوب، أحمد. ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م. معجم المصطلحات البلاغية. بيروت: مكتبة لبنان.
ياسين، مأمون محمود، من روائع البديع.